مقالات

الانترنت التربوي

القسوة تسبب أضراراً دائمة لمخ الأطفال

إعداد جونسون بروك

ترجمة د. بدر العمر

إن ضرب الطفل أو صفعه أو حتى الصراخ في وجهه قد تسبب تغيرات دائمة وضارة لتركيب المخ ومن ثم تقود إلى مشكلات سلوكية هذا ماكشفت عنه بعض الأبحاث التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد توصل إلى هذه النتائج بعض المستشارين في مستشفى "ماكلين" وهو مركز للعلاج النفسي تابع لكلية الطب في جامعة هارفرد. وقد تحدى في هذه النتائج التفكير التقليدي لكيفية التعامل والعلاج النفسي للأطفال.

أكد الدكتور "مارتن تايشر" Martin Teicher. الذي قاد هذه الدراسة بأن هناك ما يثبت أن الصدمات المبكرة التي يتعرض لها الطفل تسبب تخريباً في بعض الأجزاء الحساسة في المخ وبالتالي تؤدي إلى الاكتئاب والقلق وغيرها من أشكال الأضطرابات.

إن مخ الطفل يتشكل حسب نوع الخبرة التي يتعرض لها وأن الخبرات غير السارة تشكل المخ بطريقة مختلفة. فالإساءة اللفظية مثلا تسبب تغيرات دائمة في المخ إن أثر هذه الخبرات لا ينتهي بمجرد أن نتجاهلها ونخفيها في حياتنا العادية.

لقد قام الفريق المختص بأخذ صور للمخ لمئات الأطفال الذين تعرضوا للإهمال أو الأذى البدني أو الجنس، وقارنوها بصور لمخ أطفال لم يتعرضوا لمثل هذه الخبرات. وقد وجدوا أن حجم الحزمة العصبية Copus Collsum التي تربط بين النصف الأيمن والأيسر من المخ والتي تنقل المعلومات بينهما، أصغر بمقدار ٤٠٪ من المتوسط.

إن عدم نمو هذه الحزمة بشكل طبيعي تعيق انتقال المعلومات بين نصفي المخ. وينتج عن ذلك أن يعتمد الطفل على أحد النصفين فقط بدلا من التنقل السريع في استخدام نصفي المخ. وكما هو معروف بأن النصف الأيسر من المخ مسئول عن النصف الأيمن من الجسم، وهو مسئول أيضاً عن التفكير المنطقي والإستخدام الجيد للغة. بينما النصف الأيمن مسئول عن النصف الأيسر من الجسم

إضافة إلى مسئوليته عن التفكير الإبداعي والمسائل الوجدانية. إن الاعتماد على أحد نصفي المخ قد يسبب مشاكل حادة بالنسبة للفرد فالذين عانوا من الصدمات في فترة الطفولة يعتمدون على نشاط النصف الأيسر من المخ في الأحوال العادية. لكن عندما يتعرضون لخبرات غير سارة ينتقلون إلى النصف الأيمن. وبذلك يصبحون انفعاليين وغير منطقيين لأنهم لا يستفيدون من نشاط النصف الأيسر من المخ.

يتوقع بعض الباحثين بأن الأذى قد يكون مسؤولاً عن ظهور بعض ا لعباقرة "مثل "بتهوفن" و"دي. أتش لورنس". فقد عُومل بتهوفن معاملة سيئة من أباه المدمن حيث كان يسحبه من فراشه ويجبره على عزف الموسيقي طوال الليل ثم يقوم بمعاقبته عندما يخطىء. وكذلك تعرض لورنس إلى قسوة أبيه المدمن. كما كتب الشاعر المشهور "فيليب لاركن" قصيدة لما يفعله الآباء والأمهات بأبنائهم. وقد ذكر المغني المشهور "سناید أوكونر" Sinead O'connor كيف كان يحبس في غرفة باردة وهو عار لأيام ثم يضرب بعدها من والديه. وقد عدد الفنان البريطاني سلسلة من الإيذاءات التي تعرض لها منذ الصغر. ويدعى "براين ولسون" Brian Wilson وهو مؤسس فرقة موسيقية مشهورة بأنه تعرض لضرب مبرح في طفولته.

يقول الدكتور "ديفيد وود" David Wood، بأنه لا يوجد ما يكفي من احصاءات تدعم الفكرة بأن العبقرية هي نتيجة الأذى النفسي الذي تعرض له الطفل ، لكن هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن الأذى يؤدي إلى صعوبات في التعلم. وأن الطفل يتحول إلى شخصية قلقة نتيجة سوء المعاملة والعنف اللفظي الذي تعرض له. ويستطرد "وود" إلى طرق التعامل وعلاج هؤلاء الأطفال.

لقد تعرضت الأبحاث في علم الأعصاب الحديث إلى مسألة التغيرات التي تحدث لبنية المخ نتيجة المثيرات الخارجية. وهذا يثير مرة أخرى العلاقة بين الوراثة والتعلم وكيف أصبحت على درجة من التعقيد.

يقول "بيتر ولسون" Peter Wilson مدير معهد الصحة العقلية للأطفال "كيف أن الأبحاث في وقتنا الحاضر كشفت عن هشاشة الأطفال. ويستطرد بأن مخ الطفل عضو نام ويمر بمراحل تطور كبيرة أثناء فترة الطفولة، وهو عضو متفاعل مع البيئة المحيطة باستمرار" تبين هذه الاكتشافات الجديدة الأثر السلبي للخبرات غير السارة على الحالة الانفعالية للأطفال ومظاهر النمو المختلفة.

وقد بينت التجارب التي أجريت على الحيوانات بأن النترونات في المخ تستجيب للخبرات في بدايات نموها وعند احداث ضغوط معينة فيما يسمى بالفترة الحرجة تتحدد ما إذا كانت بعض أجزاء المخ تنمو أو تموت. لقد ساد الاعتقاد سابقاً لدى المعالجين النفسيين بأن الأمراض العقلية هي نتيجة أسباب عضوية أو نفسية وأن مرض مثل مرض الفصام Schizophrenia والاكتئاب هو نتيجة خلل كيميائي موروث ويمكن علاجه باستخدام العقاقير. بينما الاضطرابات الشخصية هي نتيجة الصدمات التي يتعرض لها الفرد ويمكن التخلص منها عن طريق العلاج النفسي.

يرى "تايشر" بأنه يمكن علاج كثير من الأمراض من خلال القيام بأنشطة معينة مثل العزف على البيانو التي تتطلب درجة من التركيز والتوازن بين نصفي المخ. وهذا قد يؤدي إلى إعادة بناء بعض الأجزاء التالفة من المخ وعلاجها.